مجلة جامعة الملك سعود، م٤، الآداب (١)، ص ص٧٧-١١٢ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

صدى نكبة القيروان فيما وصلنا من شعر ابن شرف

حلمي إبراهيم عبدالفتاح الكيلاني

محاضر، دائرة العلوم الإنسانية، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن

(ورد بتاريخ ١٤٠٩/٨/١٤هـ، وقبل للنشر بتاريخ ١٤١٠/٧/٢٦هـ)

ملخص البحث. يسعى هذا البحث إلى دراسة صدى نكبة القيروان فيما وصلنا من شعر ابن شرف القيرواني، إذ كان واحدا من أبنائها الذين اكتووا بنار تلك النكبة، وشرِّد فيمن شرِّدوا من أهلها. فعاش ما تبقى من عمره بالأندلس إلى أن توفي. ومنهج البحث يقوم على دراسة النكبة من حيث أسبابها وأبعادها فيما وصلنا من شعره من الناحيتين الموضوعية والفنية، ثم دراسة آثارها وأبعادها في شخصيته. وقد اتّخذ البحث من شعر ابن شرف أساسا له، إضافة إلى المصادر والمراجع الأخرى التي استعان بها، لكي ينهض مستوفيا مختلف مقوّماته.

تـوطئــة

نكبة القيروان[1] أسبابها وأبعادها

مُنيت القيروان عاصمة المغرب وإفريقية في منتصف القرن الخامس الهجري بنكبة عُدّت من أعـظم النكبـات التي حلّت بالمـدن الإسلامية آنذاك ـ قبل سقوط الأندلس، ودمار

(١) القيروان: قاعدة بلاد إفريقية، وأم مدائنها، عظيمة القدر، كثيرة السكّان والأموال، يغلب على أهلها الصلاح والتفنن في العلوم. بناها عقبة بن نافع سنة ٥٥هـ زمن معاوية بن أبي سفيان. وقد ظلّت عاصمة بلاد المغرب وإفريقية إلى أن دمّرها بنو هلال سنة ٤٤٩هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم *البلدان* (بـيروت: دار إحياء التراث العربيّ، ١٩٧٩م)، مج٤، ص٤٢٠؛ والإدريسي، *صفة المغرب وأرض السودان ومصـر* (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٦٨م)، ص١١٠؛ والمقرّيّ، *نفح الطيب*، تحقيق إحسان عبّـاس (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م)، مج٣، ص٢٥.

بغداد ـ إذ عاثت هذه النكبة بأمنها، وأتت على حضارتها الزاهرة، وقلبت أوضاعها السياسية والاجتماعية، وشرّدت أهلها في البلاد، بعد أن اكتملت حضارتها العمرانية والفكرية، ونعمت بقدر وافر من الهدوء والاستقرار في ظل حاكمها المعز بن باديس الصنهاجي الذي جعلها منتدى للشعراء والأدباء وغيرهم من أرباب العلوم والفنون، حتى غدت قبلة لهم يقصدونها من كل حدب وصوب لما سمعوه عن كرمه وحبّه للعلم والعلماء.(٢) يقول المراكشي: «وكانت القيروان هذه في قديم الزمان ـ منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب ـ دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت الرحلة في طلب العلم.»(٣)

ومما سبق، يتبين لنا أن القيروان ـ قبل أن تمتد لها يد الخراب والدمار ـ كانت مركز إشعاع حضاري وفكري، مثلما كانت حلقة اتّصال ما بين المشرق والأندلس، إذ كانت بمثابة جسر تمر عليه حضارة المشرق إلى الأندلس، وحضارة الأندلس إلى المشرق. وقد كانت في المشرق والأندلس حركة فكرية تجاوبت أصداؤها في بلاد المغرب عامّة، والقيروان خاصّة. وهذا واضح في رسالة ابن الربيب القيرواني التي أرسلها إلى صديقه أبي المغيرة بن حزم الأندلسي، وذلك إذ يقول: «فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائنا، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق، لأنه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب أو رحلة قارب، ولو نفث في بلدكم مصدور، لأسمع من ببلدنا في القبور، فضلا عمن في الدور والقصور.»(٤)

ولذا فقد وصلت القيروان في حضارتها وعلومها ـ قبل نكبتها ـ إلى مصاف المراكز العلمية والأدبية في الدولة الإسلامية، حتى نافست في ذلك بغداد عاصمة العباسيين، والقاهرة حاضرة الفاطميين. وفي هذا يقول ابن رشيق القيرواني معاصر ابن شرف:

(٢) انظر: ابن خلّكان، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق إحسان عبّاس، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٧٣م)، مج٥، ص٢٣٣.

(٣) عبدالواحد المراكشيّ، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيد محمد سعيد العريان، ط١ (القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٤٩م)، ص٣٥٦.

(٤) المقرّيّ، *نفح الطيب*، مج٣، ص١٥٨.

وزهـــت على مصر وحـــقّ لها تزهـــو بهم وغـــدت على بغـــدان
وتجـمّـعت فيهـــا الفضـــائـــل كلّهـــا وغـــدت محلّ الأمـــن والإيمان[٥]

وقـد نعمت القـيروان بمكانتها العلمية وحضارتها وأمنها، إلى أن امتدت إليها يد الدمار والخراب، وحلّت بها تلك النكبة المؤلمة إثر مداهمتها من قِبل عرب بني هلال[٦] الذين استعانت بهم الدولة الفاطميّة، لكي تتخلص من المعز بن باديس الذي خرج على طاعتها.

وأما أسباب هذه النكبة، فتعود إلى قطع دعوة الفاطميين من بلاد المغرب. ذلك لأن الفاطميين حينما رحلوا من المغرب إلى مصر، واتّخذوا من القاهرة قاعدة لملكهم، أنابوا عنهم في حكم بلاد المغرب وإفريقية عمّالهم فيها من أبناء زيري من صنهاجة، فظلّوا تابعين لهم تبعية اسمية تمثلت في تلقي التقليد منهم، والـدعاء لهم على المنابر، ونقش أسمائهم على السكّة[٧] إلى أن قطع المعز بن باديس دعوتهم من بلاده، وأعلن استقلاله عنهم معلنا ولاءه لبني العباس سنة ٤٤٠هـ.[٨]

وقـد تحدّث المؤرخـون عن الأسبـاب التي دعت المعـز بن باديس إلى قطع دعـوة الفاطميين وخلع طاعتهم، فابن عذاري يرى أن المعز بن باديس قطع دعوة الفاطميين من

(٥) الحسن بن رشيق، *ديوان ابن رشيق*، تحقيق عبدالرّحمن ياغي (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ص٢٧.

(٦) وهم: رياح وزغبة وعديّ وقرّة والأثبج. كانوا أيام العباسيين بنجد، وكانوا يطوفون رحلة الشتاء والصيف أطراف العراق والشام يفسدون السبل، ويقطعون طريق الحجّاج. ولمّا تغلّب بنو عبيد على مصر والشام نقلوهم إلى صعيد مصر، وفرضوا عليهم الإقامة فيه جبرا، فكانوا بذلك مصدر قلق وإزعـاج. انـظر: عبـدالرحمن بن خلدون، *تاريخ ابن خلدون* (بـيروت: مؤسسـة الأعلمي الشنتمري، د.ت.)، مج١، ص ص١٣، ١٦.

(٧) انظر: أحمد بن عذاري، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب* (بيروت: دار الثقافة، د.ت.)، مج١، ص٢٧٩.

(٨) انـظر: ابن عذاري، *البيان المغرب*، مج١، ص٢٧٧؛ وابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، مج٥، ص٢٢٩؛ وعـلي بن محمـد بن الأثـير، *الكامل في التاريخ*، ط٣ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٠م)، مج٨، ص٥٦؛ وابن خلدون، *تاريخ*، مج٦، ص١٥٩.

بلاده بعد أن تفاقم الصراع المذهبي ما بين أهل المغرب والفاطميين الذين فرضوا عليهم مذهبهم الشيعي، وذلك إذ يقول: «لمّا رحل بنو عبيد إلى مصر، لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بإفريقية، ويذكرون أسماءهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم، وتبديعا لإقامتها بأسمائهم. . . إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد، فتعطلت الجمعة دهرا. وأقام ذلك مدة إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم.»[٩] وأما ابن الأثير، فيرى أن دعوة الفاطميين قطعت من المغرب لخلاف شخصي وقع بين المعز بن باديس ووزير الفاطميين اليازوري.[١٠] وذلك إذ يقول: «ثم إن المستنصر استوزر الحسن بن علي اليازوري ولم يكن من أهل الوزارة. وإنما كان من أهل التبانة والفلاحة. فلم يخاطبه المعز كما كان يخاطب من قبله من الوزراء، كان يخاطبهم بعبده، فخاطب اليازوري بصنيعته فعظم ذلك عليه فعاتبه، فلم يرجع إليه ما يحب، فأكثر الوقيعة في المعز، وأغرى به المستنصر.»[١١]

ومع أنّنا لا ننكر الدور الخطير الذي قام به اليازوري في إغراء المستنصر بالمعز بن باديس إلا أننا لا نستطيع أن ندّعي أن ما أورده ابن الأثير يُعد من الأسباب الرئيسة المباشرة التي أدّت إلى خلع طاعة الفاطميين وقطع دعوتهم. ذلك لأن القضية في اعتقادنا أبعد من ذلك، فهي قضية صراع اشتد بين مذهبين متناقضين: أحدهما شيعي دخيل مفروض على الناس من قبل الفاطميين وعمالهم من أبناء زيري الذين سبقوا المعز في حكم بلاد المغرب، وثانيهما سني مالكي اعتنقه المغاربة عن قناعة. يقول ابن خلدون: «فأهل المغرب جميعا مقلّدون لمالك رحمه الله.»[١٢]

---

(٩) ابن عذاري، *البيان المغرب*، مج١، ص٢٧٧.

(١٠) وهو: أبو محمّد الحسن بن علي بن عبدالرحمن اليازوريّ. وزير من الدهاة أصله من يازور بفلسطين. انظر: محمد بن أحمد التجّاني، *رحلة التجّاني*، تحقيق حسن حسني عبدالوهّاب، ط١ (تونس: المطبعة الرسمية، ١٩٥٨م)، ص٢٢؛ ومحمد بن محمد السرّاج، *الحلل السندسية في الأخبار التونسية*، تحقيق محمد الحبيب، ق٤، جـ١ (تونس: الدار التونسية، ١٩٧٠م)، ص٩٤٦.

(١١) ابن الأثير، *الكامل*، مج٨، ص٥٥.

(١٢) ابن خلدون، *تاريخ*، مج٦، ص١٥٩.

ثم إن المعز بن باديس ـ منذ بداية أمره ـ كان ميالا إلى مذهب السنّة والجماعة، كارها مذهب الفاطميين[١٣] وعقيدتهم. ولكنه كان يكتم ذلك متحيّنا الفرصة المناسبة لكي يتخلص من دعوتهم، ويستقل عنهم. وهذا واضح في قوله مخاطبا فقهاء المالكية الذين كانوا يلومونه على إبقاء دعوة الفاطميين. وذلك إذ يقول: «ما أبقيت السِّكة والبنود إلا مداراة لأجل حجّاج بيت الله والمسافرين.»[١٤]

ولما أيقن المعز أن الدولة الفاطمية قد ضعفت وتسلل إليها الوهن والفساد، لما كان يحاك فيها من دسائس ومؤامرات على منصب الوزارة والحكم قطع دعوتهم من بلاده، وأعلن انفصاله عنهم، مدفوعا إلى ذلك بدافع العقيدة والإيمان، ذلك لأن حال الدولة العباسية التي أعلن ولاءه لها، لم يكن أفضل من حال منافستها الدولة الفاطمية. فقد كانت هي الأخرى مشغولة بالسلاجقة[١٥] الذين سيطروا على خلفائها، وكانوا سببا في ضعفها، وتردي أوضاعها.

ولذا، فإن الخليفة الفاطمي لم يلجأ إلى القوة العسكرية لمحاربة المعز بن باديس وردّه إلى الطاعة، وإنما أخذ يتودد إليه، لكي يحل الأمر حلا سلميا، إلا أن المعز أصرّ على موقفه، وردّ عليه ردا عنيفا مدعيا أن حكم المغرب وإفريقية حق من حقوقه وحقوق آبائه[١٦] من حكّام صنهاجة الذين سبقوه.

ولما فقد الخليفة الفاطمي الأمل في عودة المعز إلى طاعته، وأدرك عناده وخطورة موقفه الذي وقفه من الدولة، أخذ يفكر بالتخلص منه بطريقة لا تكلّفه مشقة وجهدا، فأشار عليه

(١٣) انظر: ابن عذاري، *البيان المغرب*، مج١، ص٢٧٧.

(١٤) عبدالرحمن بن محمد الدبّاغ، *معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*، تحقيق محمد ماضور (تونس: المكتبة العتيقة، ١٩٧٨م)، مج٣، ص١٦٧.

(١٥) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، مج٩، ص٤٢؛ والعماد الأصفهاني، *تاريخ دولة آل سلجوق*، ط٢ (بيروت: دار الآفاق، ١٩٧٨م)، ص ص٢٢٨-٢٣٥؛ وإسماعيل بن كثير، *البداية والنهاية في التاريخ*، ط١ (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، ١٩٦٦م)، مج١٢، ص ص١٣٩-١٤٤.

(١٦) انظر: ابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، مج٥، ص٢٣٣.

وزيره اليازوري بعرب بني هلال الذين كانوا مصدر شغب وقلق في أرض مصر. يقول ابن خلدون: «وكان أحياء هلال من جشم والأثبج ورياح وربيعة وعدي في محلاتهم بالصعيد وقد عم ضررهم، وأحرق البلاد والدولة شررهم. فأشار ابن اليازوري باصطناعهم، والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها. ودفعهم إلى حرب صنهاجة، ليكونوا عند نصر الشيعة، والسبب في الدفاع عن الدولة.»(١٧)

وقد انطلق بنو هلال إلى حاضرة المعزّ بن باديس بعد أن زودهم الفاطميون بالمال وأصلحوا أمورهم، فأخذوا بَرْقَة(١٨) والمعز مشغول عنهم بمحاربة الثائرين عليه من زناتة وصنهاجة وغيرهم. فاقتحموا بلاده كالجراد، وعاثوا بأمنها، وسفكوا دماءهم بعد أن هزموا جيوش المعز في موقعة حيدران. يقول ابن بسّام: «وجرت بينهم حروب لم يحمدها غالب ولا مغلوب، ولا أمنها بريء ولا مريب، كان من أفراها لأديمه، وألصقها بصميمه وقعة حيدران سنة أربع وأربعين وأربعمائة، فإنها أوهنت بطشه، وثلت عرشه، وأرته البوار، وضربت عليه الحصار، وأحاط الأعراب يطؤون حريمها، ويستعرضون راحلها ومقيمها، حتى ماج بعضها في بعض، وتبرّأت منها كل سماء وأرض.»(١٩)

وبعد وقعة حيدران، حصروا القيروان، وضيّقوا على أهلها، ونشروا الخوف والفزع في نفوسهم بما قاموا به من قتل وخراب وإفساد، حتى عجز المعز عن ردهم وحماية رعاياه، فأباح لهم القيروان على أن يسمحوا له بمغادرتها إلى المهديّة، فخرج إليها صاغرا ذليلا تحت حماية أصهاره منهم، تاركا القيروان وضواحيها تحت رحمة سيوفهم، بعد حصار دام زهاء ست سنوات.(٢٠)

---

(١٧) ابن خلدون، *تاريخ*، مج٦، ص١٠.

(١٨) بَرْقَة: صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية. انظر: الحمويّ: معجم *البلدان*، مج١، ص٣٨٨. وهي الآن من كبريات المدن الليبيّة.

(١٩) علي بن بسّام، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تحقيق إحسان عبّاس، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٩م)، مج٨، ص٦١٤.

(٢٠) انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٨، ص٦١٤.

وحينما دخل الأعراب القيروان سنة ٤٤٩هـ بدأت ضواحيها تتهاوى واحدة تلو الأخرى ساقطة في أيديهم، فكانوا بذلك أداة هدم ودمار بيد الخليفة الفاطمي الذي عبّر عن حقده، ونفث سمومه في بقعة من أجمل بقاع العالم الإسلامي آنذاك. يقول ابن خلدون: «وجاء العرب فدخلوا البلد، واستباحوه واكتسحوا المكاسب، وخرّبوا المباني، وعاثوا في محاسنها، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها، واستصفوا ما كان لآل بلكين في قصورها، وشملوا بالعبث والنهب سائر حريمها، وتفرّق أهلها في الأقطار.»(٢١)

وبذا فقد عملت هذه النكبة على تخريب القيروان دار العلم والحضارة بالمغرب، وشرّدت أهلها في البلاد، فأذاقتهم مرارة الغربة ولسعة الفراق.

ابن شرف حياته وآثاره

هو أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد أحمد بن شرف الجذاميّ القيرواني،(٢٢) سليل قبيلة جذام العربية التي نزحت إلى المغرب إبّان الفتح الإسلامي واستقرّت بها. يقول ابن دحية في مستهل ترجمته له: «من ولد جذام بن عدي بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان»(٢٣) لم تشر المصادر التي تعرّضت لترجمته وأخباره إلى زمن ولادته، ولكنّنا من خلال اتّصالنا بتراجم شيوخه الذين تتلمذ عليهم بالقيروان من

(٢١) ابن خلدون، *تاريخ*، مج٦، ص١٦.

(٢٢) انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٦٩؛ وياقوت الحمويّ، *معجم الأدباء*، تحقيق أحمد رفاعي (القاهرة: دار المأمون، ١٩٣٦م)، مج١٩، ص٣٧؛ وابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، مج٢، ص٨٩؛ وابن بشكوال، *الصلة* (القاهرة: الدار المصرية، ١٩٦٦م)، مج٢، ص٦٠٤؛ والعماد الأصفهانيّ، *خريدة القصر وجريدة العصر*، تحقيق عمر الدسوقي، ق٤، جـ٢ (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٦٩م)، ص١١٠؛ ومحمد بن شاكر، *فوات الوفيات*، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد (القاهرة: مكتبة النهضة المصريّة، ١٩٥١م)، مج٢، ص٤١٠؛ وخليل بن أيبك الصفديّ، *الوافي بالوفيات* (دمشق: المطبعة الهاشميّة، ١٩٥٣م)، مج٣، ص٩٧.

(٢٣) عمر بن الحسين بن دحية، *المطرب في أشعار أهل المغرب*، تحقيق مصطفى عوض الكريم، ط١ (الخرطوم: مطبعة مصر، ١٩٥٤م)، ص٧٢؛ وانظر: علي بن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق عبدالسلام هارون، ط١ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢م)، ص٤٢١.

أمثال: ابن القابسيّ،[٢٤] والقزّاز،[٢٥] والحصريّ،[٢٦] والفاسيّ،[٢٧] نستطيع أن نرجّح أنه ولد في أواخر القرن الرابع الهجري بالقيروان، حيث كانت في أوج عزّها وازدهارها الفكري، زاخرة بالعلوم والمعارف المختلفة المتنوّعة، فأخذ علومه عن شيوخ عصره وعلمائه. يقول ابن بشكوال: «وله رواية عن أبي الحسن القابسيّ الفقيه، وأبي عمران الفاسيّ وصحبهما.»[٢٨] ويقول ياقوت: «وقرأ النّحو على أبي عبدالله محمّد بن جعفر القزّاز، وأخذ العلوم الأدبيّة عن أبي إسحاق الحصريّ.»[٢٩]

ومما سبق، يتبيّن لنا أن ابن شرف كان صاحب شخصية واسعة الاطلاع، متعددة الثقافة والمواهب، إذ كان أديبا، كاتبا شاعرا، ناقدا، فقيها. ولذا فقد استطاع بمواهبه المتعدّدة، وتمكنه من أدوات فنونه التي برع بها، أن ينال إعجاب من تحدثوا عنه، وترجموا له من معاصريه ومؤرّخيه، فشهدوا له بالإبداع والتفوّق، وأجمعوا على أنه أحد فحول شعراء المغرب والأندلس. يقول ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ): «شاعر حاذق متصرّف، كثير المعاني

(٢٤) وهو: أبوالحسن علي بن محمد بن خلف القابسيّ. كان واسع الرواية، عالماً بالحديث ورجاله، فقيها مالكيا متكلّما (ت٤٠٣هـ). انظر: القاضي عياض بن موسى، *ترتيب المدارك وتقريب المسالك*، تحقيق أحمد بكير (طرابلس: مكتبة طرابلس، د.ت.)، ص٦١٦؛ والدبّاغ، *معالم الإيمان*، مج٣، ص١٣٤؛ وابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، مج١، ص٣٣٩.

(٢٥) وهو: أبو عبدالله محمد بن جعفر القزّاز التميميّ القيروانيّ (ت٤١٢هـ)؛ انظر: ابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، مج٤، ص٣٧٤؛ والحمويّ، *معجم الأدباء*، مج١٨، ص١٠٥.

(٢٦) وهو: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصريّ القيروانيّ. كان شاعرا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، نظر في النّحو والعروض، ولزمه شبّان القيروان وأخذوا عنه. انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٥٨٤؛ والحمويّ، *معجم الأدباء*، مج٢، ص٩٤؛ وابن خلّكان، *وفيات الأعيان*، مج١، ص٥٤.

(٢٧) وهو: أبو عمران موسى بن عيسى بن حاج الغَفْجُوميّ الفاسيّ. كان فقيها عالما بفنون العلم والأدب (ت٤٢٩هـ)؛ انظر: الحمويّ، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٣٧؛ والدبّاغ، *معالم الإيمان*، مج٣، ص١٦٠؛ وابن بشكوال، *الصلة*، مج٢، ص٦١٢.

(٢٨) ابن بشكوال، *الصلة*، مج٢، ص ص٤، ٦.

(٢٩) الحموي، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٣٧.

والتوليد، جيّد المقطّعات والتقصيد.»[٣٠] ويقول ابن بسّام (ت ٥٤٢هـ): «كان أبو عبدالله بن شرف القيرواني من فرسان هذا الشان، وأحد من نظم قلائد الآداب، وجمع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون، تلاعب الرياح بأعطاف الغصون.»[٣١] ويقول ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ): «كان من جلّة الأدباء وفحول الشعراء.»[٣٢] ويقول ياقوت (ت ٦٢٦هـ): «الأديب الكاتب الشاعر؛»[٣٣] يقول ابن شاكر (ت ٧٦٤هـ): «أحد فحول شعراء الأندلس والمغرب.»[٣٤] وأما ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، فقد ذهب إلى القول: «ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف.»[٣٥]

وقد جسّد ابن شرف هذه الثقافة الواسعة المتنوعة في مؤلفات[٣٦] عديدة، حاول فيها أن يدون ما جادت به قريحته وأفكاره. يقول ابن بسّام: «ولأبي عبدالله عدة تواليف أفاضها

---

(٣٠) أحمد بن فضل الله العمرى، *مسالك الأبصار*، مخطوط في مكتبة الجامعة الأردنية تحت رقم ٣٩٥، ق٢، جـ١١، ورقة ٢٣٨ و٢٤٠.

(٣١) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص١٦٩-١٧٠.

(٣٢) ابن بشكوال، *الصلة*، مج٢، ص٦٠٤؛ وانظر: الدباغ، *معالم الإيمان*، مج٣، ص١٩٤.

(٣٣) الحموي، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٣٧.

(٣٤) ابن شاكر، *فوات الوفيات*، مج٢، ص٢٥٥؛ وانظر: الصفدي، *الوافي بالوفيات*، مج٣، ص٩٧.

(٣٥) ابن خلدون، *تاريخ*، ط٣ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م)، مج١، ص ١٠٩٠.

(٣٦) لم يصل إلينا من هذه المؤلفات الكثيرة غير *رسالة الانتقاد*، فعلى ما يبدو أن مؤلفاته فقدت فيما فقد من تراثنا الإسلامي الأندلسي، وذلك بسبب النكبات والمحن التي تعرضت لها بلاد الأندلس. ولذا فإن هذه الرسالة تكاد تكون الأثر الوحيد الذي وصلنا من مؤلفات ابن شرف. وقد نشرها كل من عبدالعزيز أمين الخانجي، في *أعلام الكلام*، ط١ (القاهرة: مطبعة النهضة، ١٩٢٦م)، ص ص١٣-٥٣؛ وحسن حسني عبدالوهّاب، في مجلة *المقتبس*، مج٦ (١٩١١م)، ص ص٣٥١-٥٣٠. وأما شعره، فقد جمع بعضه عبدالعزيز الميمني، في *النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف*، ط١ (القاهرة: المطبعة السلفيّة، ١٣٤٣هـ)، ص ص٩١-١١٥. وقد قمت بجمع شعره من مظانه المختلفة، المخطوطة والمطبوعة وخرجته. ولكنني لم أنشره حتى الآن على أمل أن أظفر بمخطوط ديوانه في المستقبل.

بحـارا، وأطلعها شموسا وأقمارا، منها: كتابه الموسوم بـ«أعلام الكلام»، وكتاب «أبكار الأفكـار.» ويقـول ياقـوت الحمـوي: «ولابن شرف القـيرواني من التصـانيف «أبكـار الأفكار»[٣٧] جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره، وأعلام الكلام، مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبـة، ورسـالة الانتقاد، وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والإسلام، وديوان شعر، وغير ذلك.»[٣٨]

ولما نبغ وأجاد، ألحقه المعز بن باديس بديوانه، فحظي باهتمامه، وحاز إعجابه حتى أصبـح من خاصـة شعـرائه المقربين منه، المحببين إلى نفسه[٣٩] إلى أن هاجم الأعراب القيروان وأرغموا المعز بن باديس على الانتقال إلى المهديّة. فلحقه ابن شرف واستمر في خدمته إلى أن تغير عليه المعز إثر نكبته، فرحل إلى صقلية،[٤٠] ثم إلى الأندلس متنقّلا بين ملوك الطوائف فيها إلى أن استقر أخيرا في كنف المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة حيث توفي فيهـا بعيدا عن أهله ووطنه سنة ٤٦٠هـ.[٤١] يقول ابن بسّام: «واستقر أخيرا عند المأمون بن ذي النون، فعليه خلع آخر لبوسه، ونثر بقية كيسه.»[٤٢]

الموضـوع الشعـري

النكبة ومشاهد الجلاء

قدِّر لابن شرف القيرواني أن يرى مدينته القيروان وقد عمها الخراب والدمار والتنكيل بالنساء والأطفال والشيوخ، وأن يعيش مع أبناء وطنه المنكوب شتى أصناف القهر والإذلال

(٣٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص١٦٩-١٧٠؛ والحموي، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٤٣؛ وابن دحية، *المطرب*، ص٧٢؛ وحـاجي خليفـة، *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون* (طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٨٧هـ)، مج١، ص٤.

(٣٨) الحموي، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٤٣؛ وانظر: ابن بسام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٧٠.

(٣٩) الحموي، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٣٧.

(٤٠) انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٢.

(٤١) انـظر: الحمـوي، *معجم الأدبـاء*، مج١٩، ص٣٨؛ وابن شاكـر، *فوات الـوفيات*، مج٢، ص٤١٠؛ الصفدي، *الوافي بالوفيات*، مج٣، ص١٩٧.

(٤٢) ابن بسّـام، *الـذخيرة*، مج٧، ص١٧٠؛ وانظر: العمريّ، ابن فضل اللّه، *مسالك الأبصار* (مخطوط)، ق٢، جـ١١، ورقة ٢٣٨.

والتشريد . فترك ذلك كله آثارا ملموسة في نفسيته وشعره ، قال ابن بسّام : «وسال سيل فتنة القيروان ، اللّاعب بأحرارها ، المُعَفّى على آثارها . »[٤٣] وكيف لا وهو يرى مدينته الزاهرة ومسقط رأسه القيروان وهي تتهاوى أمام عينيه طاوية معها كل ذكرياته الجميلة وأيامه التي عاشها فيها بكل ما حفلت به أيام عزها وازدهارها؟! ومن أجل ذلك ، فقد بقيت هذه المشاهد المؤلمة : مشاهد الدمار والقتل والتنكيل والتشريد ماثلة في نفسه تفيض ألما وحسرة ، فجسّدها في صور شعرية ممزوجة بالألم والحسرة تارة ، وبالحنين والشوق والتعلّق تارة أُخرى .

ولذا فإنني لا أبالغ حين أقول : إن معظم ما وصلنا من شعره الذي نظمه بعد نزوحه من القيروان إلى الأندلس ، قد جاء في تصوير نكبة وطنه وفي بكائه والتفجّع عليه ، فقد حركت هذه النكبة المؤلمة كوامن نفسه ، وجعلته يتفاعل معها بكل مشاعره وأحاسيسه ، فسجّل لنا أحداثها الدقيقة في شعره ، وعبّر عن الظروف الصعبة القاسية التي عاشها وأبناء وطنه المنكوب في ظل تلك النكبة التي عصفت بهم ، وقلبت أوضاعهم السياسية والاجتماعية والفكرية من جانب ، وفي بلاد الغربة حيث القهر والإذلال والتعصب من جانب آخر .

وحينما وقفتُ عند قصائده ومقطّعاته الشعرية التي صور فيها نكبة وطنه ، بهرتني وشدّتني لما فيها من عاطفة صادقة جيّاشة استطاعت أن تسمو بشعره إلى ذروة التأثير والانفعال ، إذ كان بارعا في التعبير عن هموم أبناء وطنه وما يعتمل في نفوسهم من ألم وقهر وتوجّع لما أصابهم ، مثلما كان قادرا على التعبير عن همه الذاتي من خلال همومهم والتغنّي به في مستوى إنساني رفيع .

وذلك لأن ابن شرف في تصويره لنكبة وطنه لم يكن مجرد ناقل للأحداث مصوّرا لها كما سمعها ، وإنما كان يعبّر عن تجربة حقيقية كان قد عاشها وأبناء وطنه المنكوب ، فكان وكأنه مصور بارع يعرف من أين يلتقط صوره ومشاهده المعبرة الموحية المؤثرة التي تضرب في أعماق الوجدان البشري ، وتهز كيانه لما فيها من صدق وحرارة ، فجعلنا معه نعيش معاناته ، وكأننا بين أهل القيروان نتألم ونعاني مما يتألمون ويعانون ، ومن ذلك قوله مصورا خروج أبناء وطنه فارّين مذعورين وقد أذهلتهم النكبة ، وصدمهم هول المفاجأة :

---

(٤٣) ابن بسّام ، *الذخيرة* ، مج٧ ، ص١٧٠ .

بعـدَ يومٍ كأنّـما حُشِرَ الخَـلْـ ـقُ حُفـاة به عَواري رَجَـلَى
ولهـم زَحْمَـة هنـالـك تَحكـي زَحْمَـة الحشر والصحـائف تُتْـلى
وعَـجـيج وضـجّـة كضـجيج الـ ـخَلْق يَبـكـون والسرائـر تُبْـلى
مِن أيامـى وراءهـن يتـامـى مُلئـوا حَسرة وشَـجْـوا وثُـكـلا
وثـكـالى أرامـلا حامـلاتٍ طِفْلَة تَحْمِـل الـرّضـاع وطفـلا[٤٤]

ومما تقدّم، نلحظ حرص ابن شرف ودقته في التصوير، فهو لا يترك جزئية مهما كانت صغيرة تخدم صورته التي يريد أن يعبّر عنها إلا وجاء بها، لكي يصف لنا رحيل أبناء وطنه وما أصابهم على أيدي الغزاة. وهو حينما يتحدث عن مشاهد جلائهم حريص على استلهام الصور الإنسانية المؤثرة، لكي يضفي عليها مسحة حزينة يفرّغ فيها ما يعتمل في نفسه من حرقة وألم. ولذا فقد جعل مشاهد الوداع التي كانت تعبّر عن هدوء القوم وطمأنينتهم تختفي من حياتهم، وذلك إذ يقول:

نادبـاتٍ عَفْـراء تُسْـعِـد سُعْـدى وسُـعـاد تُجيب بالـنّـوح جُملا
ليس مِنهـنَّ من يُوَدِّع جارا لا ولا حُرمَـة تُشـيّع أهْـلا
كُلّهـنَّ اعـتـدى الـفِـراق عليه فاقـتـحمن الجـلاء حَفْـلا فَحفْـلا[٤٥]

وبعد ذلك يمضي ابن شرف في نقل مشاهد القتل والتعذيب التي تعرض لها من نجا من سيوف الغزاة من أبناء وطنه الفارّين وهم هائمون على وجوههم يلتمسون الأمان، يقول:

فإذا الـقَـفْـر ضمَّـهُـم فوق الـدَّهـ ـر لهم غير ذلـك الـنَّـبـل نَبْـلا
مِن ثَعـابـين حامـلين نُيوبـا عُصُـلا ذابـلا ونَـبْـلا ونَـصْـلا
وشـياطـينَ رامحـين يُلاقـو ن بجـون الـفـلا مسـاكـين عُزْلا
فترى للظّهـور تُعْـتَـل عَتْـلا وتُـشَـقُّ الـبـطون تُغْسَـل غَسْـلا
فإذا مَطْمَـع أصـابـوه في أحـ ـشاء قَوْم عَمّـوا بذلـك كُلّا[٤٦]

(٤٤) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٨.
(٤٥) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٩.
(٤٦) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٩.

ولم يقتصر ابن شرف في تصويره لمصير أبناء وطنه على تصوير ما أصابهم من قتل وتشريد وتنكيل بالنساء والأطفال والشيوخ، وإنما يحاول أن يتسلل إلى نفوسهم المقهورة المحزونة، لكي يصوّر لنا ما يعتمل فيها من مشاعر وأحاسيس لما لاقوه في غربتهم من قهر وإذلال وإهانة أينما حلّوا. وذلك إذ يقول:

فإذا نجّت المقادير منهم ... رَاحِلا بالخلاص يَحْمِل رَحلا
لَقِي الهون في المذلّة أنّى ... كان مِن سائر البلاد وحَلاّ
ليس يلقى إلاّ آمرا مُستطيلا ... طالبا عندَه حُقُودا وذَحْلا[٤٧]
فترى أشرف البَريّة نَفْسَا ... ناكِسا رأسَه يُلاطِف نَذْلا[٤٨]

ويتحدّث ابن شرف عن انقلاب الأوضاع الاجتماعية التي عصفت بأبناء وطنه عامّة وحريمهم اللواتي كنّ مصونات مكرمات في أوطانهن خاصة، حيث كن يعشن في طمأنينة وهدوء فأصبحن في قسوة وشقاء، فيقول:

وحَصَانٍ كأنها الشمس حُسنا ... كفّنتها الأطمار[٤٩] نَجْلاء كَحْلا
فات كرسيّها الجلاءُ فأضحَت ... في ثِياب الجلاء للنّاس تُجلى
تَركوا الربع والأثاث وما يَثـ ... ـقُل لا حامِلٍ من النّاس ثِقْلا
لَبِسُوا البالياتِ من خَشِن الصُّـ ... ـفِ ليغدو النّبيه في النّاس غُفْلا[٥٠]

وكانت صورة المرأة مما ركز عليه ابن شرف في شعره الذي صور النكبة، لما لها من قيمة خاصة ومكانة عند الإنسان العربي المسلم، إذ تأتي في المرتبة الثانية بعد عقيدته، ولذا فقد أكثر من الحديث عنها حتى يحدث في النفوس استثارات معينة، ويظهر ما تعرّض له

(٤٧) الذّحْل: الثأر والحقد. جمال الدّين بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر، د. ت.)، مادة ذحل.
(٤٨) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٩.
(٤٩) الأطمار: الثياب الخَلَقَة البالية. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، *القاموس المحيط* (بيروت: دار الجيل، د. ت.)، مادة طمر.
(٥٠) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٨.

أبناء وطنه المنكوب من إذلال وهتك للأعراض وسبي للحريم، ويصوّر ما آلوا إليه في ديار الغربة متكئا في ذلك كلّه على حشد الصور المتقابلة حتى يظهر النقيض، ويبرز صوره التي يريد أن يعبّر عنها بجلاء ووضوح:

بعد خُطوب خَطَبت مُهجَتي ... وكان وَشْك البَيْن إمْهارَها
ذا كَبِدٍ أفلاذُها حَوْلَها ... قَسّمَت الغُرْبَة أعْشارَها
أطافلٌ[٥١] ما سَمِعَت بالفلا ... قطُّ فعايَنْتُ الفَلا دارها
ولا رأت أبصارُها شاطِئا ... ثُمَّ جَلَت باللّجّ[٥٢] أستارَها
ولم تَكُن تَعْلُو سَريرا عَلا ... إلا إذا وافَق مِقْدَارَها
ثُمَّ عَلَت كلّ عَثُور الخُطَا ... يَرْمِي بها الأرض وأحْجَارَها
ولم تَكُنْ تَلْحَظُها مُقْلَةٌ ... لو كَحَلَت بالشَّمْس أشفارَها[٥٣]
فأصبَحَت لا تَتَّقِي لَحْظَةً ... إلّا بأنْ تَجْمَع أطْمارَها[٥٤]

ويبدو لي أن النازحين من أهل القيروان الذين التجأوا إلى الأندلس وغيرها من البلاد المجاورة، لم يجدوا فيها الترحيب والمواساة، وإنما وجدوا فيها الإذلال والإهانة والتعصّب. ومن هنا كانت نغمة الحنين إلى الوطن والتعلّق به تتعالى في شعر ابن شرف وتتزايد بصورة واضحة إثر حديثه عن معاناة أبناء وطنه وما لاقوه في ديار الغربة، وتتفجّر في نفسه شوقا وحنينا حتى يخفف من وقع النكبة وشدّة المعاناة. ومن ذلك قوله:

لَيْتَ شِعْري هل عَوْدَةٌ لي في الغَيْـ ... ـب إلى ما أطال شَجْوِي أم لا؟[٥٥]

وقوله:

---

(٥١) الطِّفْل: الرَّخْص النّاعم من النساء؛ *لسان العرب*: طفل.

(٥٢) اللجّ: الماء الكثير المجتمع؛ *لسان العرب*: لجج.

(٥٣) الشَّفر: منبت الشعر في الجفن؛ *لسان العرب*: شفر.

(٥٤) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣١؛ وانظر: الدبّاغ، *معالم الإيمان*، تحقيق إبراهيم شبوح، ط١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٨م)، مج١، ص ص ١٥ ـ ١٦؛ وعبدالعزيز الميمني، *النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف* (القاهرة: المطبعة السلفيّة، ١٣٤٣هـ)، ص ص٩٩ـ١٠٠.

(٥٥) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٩.

يا قيروانُ وَدِدت أَنِّيَ طائـرٌ ... فأراك رُؤيةَ باحـثٍ مُتـأَمِّـلِ[٥٦]

وحينما كان يحسّ بالضيق، ويستبدّ به الحنين إلى الوطن، كان يتعزّى بتصوير وطنه والألم يعتصر قلبه لما أصابه من دمار وخراب ووحشة، وفي ذلك يقول:

آهِ للقـيروان أَنّـةَ شَجْـوِ ... عن فُؤادٍ بجَـاحِـم الحُـزْن يَصْـلى
حينَ عادَت به الـدّيارُ قُبُـوراً ... بَلْ أَقُـول الـدّيارُ مِنْهُـنَّ أَخْـلى[٥٧]

ويقول أيضا:

كأَنَّ الـديارَ الخـاليـاتِ عَرَائسٌ ... كواسِـدُ[٥٨] قد أَزْرَت بهِنَّ الضَّرائِـرُ[٥٩]
وتُـنْـكِـرُ بُقْـيَاهـا الأَسِرَّةُ حُسَّرا ... عواطِـل لا تُفْـشَـى لَهُنَّ السَّرائِـرُ
إذا أقبـل الـليلُ البَـهيمُ تمكَّنَت ... بها وَحْـشَـةٌ منهـا الـقلوبُ نَوافـرُ
ولا سُرُجٌ إلاّ الـنُّـجُـوم ورُبَّـما ... تَغَـطَّت فَسَـدَّت جانبيها الـدَّياجِـرُ[٦٠]
يَمُـرُّ عليهـا المَـور يسْحَب لُحْفَـه ... ولا كانسٌ إلاّ الـرِّياح الـغَـدائِـرُ
ويمْتَـدُّ عُمْـرُ الصَّوْتِ فيها ورُبَّما ... تجُود مِرارًا بالـكـلام المـقـابِـرُ[٦١]

ويقول وقد استبد به الضجر وأرّقته الغربة:

تَرحَّـلَ عنهـا قاطِـنُـوهـا فلا تَرى ... سِوى سائـرٍ أو قاطـنٍ وهـو سائِـرُ
تَكَـشَّـفَـت الأَسْـتـار عنهـم ورُبَّما ... أُقـيمَـت سُتُـورٌ دونهم وَسَـتـائِـرُ
إذا جَاذَبَـت أَسْـتـارَهـا تَبْـتَغِـي بها ... لأَقْـدَامِـهـا سِتْرا تَبَـدَّت غدائِـرُ
تَبِـيتُ على فُرْش الحصـى وغِـطَاؤهـا ... دوارسُ أسْـمال زَوَار حَقَـائِـرُ[٦٢]

---

(٥٦) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٣.
(٥٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٧.
(٥٨) الكساد: خلاف النَّفاق؛ *لسان العرب*: كسد.
(٥٩) الضَّرَّةُ: امرأة الرجل الأخرى؛ *لسان العرب*: ضرر.
(٦٠) الدّياجر: مفردها ديجور، وهو الظلمة الشديدة؛ *لسان العرب*: دجر.
(٦١) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٤.
(٦٢) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٥.

وحتى يخفف من وطأة نفسه الحزينة المثقلة بالهموم والمصائب، كان يقابل بين حال القيروان قبل خرابها واجتياحها حيث كانت معمورة بأهلها مزهوّة بهم، وبين حالها إثر نكبتها وتفرق أهلها في البلاد، فخيمت عليها الوحشة والظلام. بعد أن يجعل الطبيعة تشاركه همه ومصابه، إذ يقول:

ثُمَّ لا شَمْعَةٌ سِوى أَنْجُمٍ تَخْـ طو على أُفْقِها نَواعِس كَسْلى
بعدَ زُهْرِ الشَّماع تُوقَد وَقْدا ومتَان الذُّبَال تُفْتَل فَتْلا
والوُجُوه الحِسَان أشْرَق مِنْهُنَّ ويَفْضُلنَهُنَّ مَعْنَى وشَكْلا(٦٣)

ويتجلى حنين ابن شرف إلى موطنه ومسقط رأسه القيروان، حينما كان يتغنّى بأيّامه الجميلة التي قضاها في ربوع وطنه، حيث الذكريات العذبة، والشمل مجموع. ومن ذلك قوله:

فَيَاليتَ شِعر القيروان مواطني أعائدةٌ فيها الليالي القصَائِرُ؟
ويا رَوحَتي بالقيروان وبُكْرَتي أراجِعَةٌ روحاتُها والبواكِرُ؟
كأنْ لم تَكُنْ أيامنا فيك طَلْقَةً وأوجه أيام السُرور سَوافِرُ
كأن لم يَكُنْ كُلٌّ ولا كان بَعضُه سيمضِي به عَصْرٌ ويمضي المعاصِرُ(٦٤)

وقوله:

يا بَيْدَ روطةَ والشوارعُ حَوْلَها مَعمُورةٌ أبدا تغصّ وتَمتَلي
يا أربعي في القُطْبِ منها كيف لي بمعادِ يومٍ فيك لي ومن أين لي؟(٦٥)

ويؤكد ابن شرف لوطنه أنه لن ينساه ما عاش حتى وإن كان في حظوة ونعيم، وأن طيفه يلازمه في حلّه وترحاله، في يقظته ونومه، وذلك إذ يقول:

(٦٣) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٨.
(٦٤) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٥.
(٦٥) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٣.

يالــو شَهــدتِ إذ رأيتُــكِ في الـكــرى كيف ارتجــاعُ صِبــايَ بعــدَ تَكــهُّــل
لا كَثْــرَةُ الإحــســانِ تُنْسِي حَسْرَةً هيهــاتَ تذهــب عِلَّةٌ بتــعــلُّل
وإذا تجَدّدَ لي أخٌ ومُــنَــادِمٌ جَدَّدتُ ذِكْــر إِخَــاءِ خِلٍّ أوَّلِ(٦٦)

وهو بهذا يعبّر عن مدى تعلق الإنسان المسلم بوطنه وحبّه له مهما كثرت المغريات وطال الغياب، ذلك لأن الوطن في نظر المسلم ليس مجرّد ذكرى، وإنّما هو الحياة والأمل وعنوان العزّة والكرامة حتى وإن كان في صحراء خالية لا أنيس فيها. وفي شعرنا العربيّ قديمه وحديثه ما يؤكد ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن ابن شرف استطاع أن يترجم لنا حنينه إلى وطنه وشدّة تعلّقه به إلى عمل فنيّ صادق نابع من قرارة وجدانه ونفسه، مثلما عبّر عن وجدان أمّته وأهله الذين ألّمت بهم النكبة، إذ كان واحدا منهم أصابه ما أصابهم. ولذا فقد جاء حديثه عن هذه النكبة من داخل النفس لا من خارجها.

وممّا ينبغي ذكره هنا، أن ابن شرف قد ردّ النكبة التي مُني بها وطنه، وما أصابه من دمار وتشرد إلى ظلم الحكام والولاة من جانب، وإلى ارتكاب المَعاصي والذنوب من جانب آخر. وهذا واضح في قوله:

جار فِيهــم زمــانُهم وأُولــو الأمْـ ـرِ فَفَــرُّوا يَرْجُــونَ في الأرضِ عَدْلا(٦٧)

وفي قوله:

تُرى سيئــات الــقــيروان تَعــاظَــمــت ألم تَكُ قِدْمــاً في البــلادِ الكبــائِـرُ؟(٦٨)

ولقائل أن يقول: إنّ ابن شرف قد وقف من موطنه موقفا سلبيا، إذ اكتفى بالبكاء وإطلاق عبارات الحزن والتأوّه، والتعبير عن شوقه إلى وطنه وحنينه إليه. فلا نسمع في شعره

(٦٦) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٣.
(٦٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٨.
(٦٨) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٥.

الذي صور فيه وطنه المنكوب صرخة القوة والجهاد، ولم يستنهض أحداً من ممدوحيه الذين اتصل بهم في الأندلس. فنقول إن ذلك ربما يعود إلى معرفته بحقيقة حكام الأندلس، إذ نزح إليها زمن ملوك الطوائف، حيث النزاع الداخلي والتمزق السياسي الذي كان ينخر عظام تلك الدول، وينذر بسقوط الأندلس في أيدي أعدائها، إذ كانت مقسّمة إلى دويلات صغيرة متناحرة متنازعة، همّ كلٍّ من حكامها المحليين أن يحافظ على مملكته وعرشه حتى وإن كان ذلك على حساب عقيدته ووطنه. ولذا فإن بعضهم كان يستنجد بالأعداء على أبناء عقيدته ودينه، لا لشيء إلا ليثبت دعائم حكمه، ويوسّع نفوذه وسيادته. يقول صاحب *المعجب*: «واستبد كلُّ رئيس منهم بتدبير ما تغلّب عليه من الجهات، وانقطعت الدعوة للخلافة.»(٦٩)

وحينما رأى ابن شرف حكام الأندلس على هذه الحالة من التمزّق والضعف، فقد الأمل بهم واكتفى بتذكّر أيّامه في وطنه، وبالحنين إليه، ذلك لأن حال بلاد الأندلس وما ينتظرها، ليس بأفضل من حال بلاده المنكوبة، ومصاب أهلها في حكامها، لا يقل في حال من الأحوال عن مصابه ونكبته.

الدراسة الفنية

المقدمة والرحلة

وأما أصداء نكبة القيروان في شعر ابن شرف الذي صور النكبة من الناحية الفنية، فقد تجلّت بوضوح في بعض عناصر معماره الفني، وخاصة المقدمة والرحلة. ولكن قبل أن أبدأ حديثي عن هذين الجانبين، أودّ أن أشير إلى أن معظم ما وصلنا من شعر ابن شرف عامة، وشعره الذي صور فيه نكبة وطنه القيروان خاصة، ما هو إلا مقطعات ومختارات من

(٦٩) المراكشيّ، *المعجب*، ص ص٧٠، ٩٢؛ وانظر أيضا: لسان الدين بن الخطيب، *أعمال الأعلام فيمن بويع قبل سن الاحتلام*، تحقيق ليفي بروفنسال، ط٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٦م)، ص٤٤ وما بعدها؛ وابن عذاري، *البيان المغرب*، مج٣، ص ص٢٢٨-٢٣٩؛ واستانلي بول، *قصة العرب في إسبانيا*، ترجمة علي الجارم، ط١ (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص ص١٥٣-١٥٤.

قصائد مطولة لم يصلنا منها إلا القليل. وهذا واضح فيما قدّمه لنا ابن بسّام من أشعار ابن شرف وقصائده التي رفعها إلى بعض ممدوحيه في الأندلس إثر خروجه من وطنه من ناحية، وأشعاره التي قالها في نكبة وطنه وبكائه من ناحية أُخرى، فكثيرا ما كان ابن بسّام يشير وهو يقدمها إلى أنها مقتطفة من قصائد مطولة اقتطف عيونها. ومن ذلك قوله: «قال من قصيدة وصف فيها إذلال أهل سوسة جالية القيروان، وهي طويلة قطفت عيونها،»(٧٠) وقوله: «وله من أُخرى. . . أو قال من أُخرى.»(٧١)

ومهما يكن من أمر، فإننا من خلال ما وصلنا من أشعاره التي حفظها لنا ابن بسّام، نستطيع أن نتبين أصداء تلك النكبة المؤلمة التي هزت كيان ابن شرف، وقلبت أوضاعه وأوضاع وطنه، إذ اتخذ منها مقدمات لبعض قصائده التي رفعها إلى ممدوحيه في الأندلس إثر محنته وخروجه من وطنه. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قصيدته التي رفعها إلى ابن السقاء(٧٢) وقد استهلّها بالحديث عن المصائب والمآسي التي حلت بوطنه وأهله على أيدي عرب بني هلال الذين كانوا سببا في خراب وطنه وتشريد أهله، إذ يقول معبرا عن نقمته عليهم، مصوّرا حنينه إلى وطنه، وشدّة تعلّقه به:

فيَا أَخويَّ من أسدٍ وسَعْدٍ ... أَحيٌّ حيُّ زُغْبَةَ أم دفينُ؟
فلا اشتملَت مساكنُها بشَمْلٍ ... ولا هدأ القَرار به سُكُونُ
ولا سَرَت الرياحُ على رياحٍ ... لواقح مزنَةٍ أنّى تَكُونُ
فقد دارَت علينا من رحاها ... طَحُونٌ كُلَّما لاقت زَبُونُ
فلا وطنٌ لنا إلّا المطايا ... وإلا الماءُ طَوْراً والسَّفينُ
لعلّك أيُّها البرقُ اليماني ... إذا كَشَّفْت عن خبرٍ تبينُ
أفي وكناتها عُقبان قوم ... كعَهدي أمْ خَلَت منها الوُكُونُ؟
وبين قِباب صبرة والمصلّى ... نُهىً ومهاً وآسادٌ وعِينُ

(٧٠) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٧.
(٧١) انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص٢٣٢-٢٣٦.
(٧٢) وهو: أبوالحسن إبراهيم بن محمّد بن يحيى، مدبّر الحُكم الجهوريّ بقرطبة. انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص٢٣٨-٢٤٥.

وأجبالٌ تَمُور بها المذاكي وأقمارٌ تَميسُ بها الغُصونُ
وقرطُبةٌ أعيدَت قيروانا لنا لمّا دَهَت تلك الفتُون(٧٣)

وقصيدته التي رفعها إلى ابن الأفطس،(٧٤) إذ استهلها بالحديث عن طيف الوطن الّذي كان يؤرّقه، ويلازمه في حلّه وترحاله، طيلة وجوده بالأندلس مستبدلا بذلك المقدّمة الطلليّة والغزلية المعروفة، حيث يقول:(٧٥)

زارَ وقد شمَّر فَضْل الإزَار جُنْح ظلامٍ جانحٍ للفرار
وروضةُ الأنْجم قد صوَّحَت والفجرُ قد فجَّرَ نهر النّهار
قلت له: أهلاً بطيفٍ دنا من نازحِ الدّارِ بعيد المزار
كيف خطوتَ الشَّرَّ ثم الشَّرَى وابني هلال والقنا والشّفار(٧٦)
أصهوةَ الغبراء أم داحساً ركبت حتى خُضْتَ ذَاكَ الغمار؟(٧٧)
وجئتَ بالخطَّار أم أعوجٍ جنيبةً معتدَّةً للخطار(٧٨)
وهل تقلَّدت لدفع الرَّدى حمائلَ الصمصامِ أم ذي الفقار؟(٧٩)

---

(٧٣) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص٢٣٧ـ٢٣٨.

(٧٤) وهو: أبوبكر محمد بن عبدالله بن مسلمة، صاحب بطليوس. كان أديبا عالما، حكم حتى سنة ٤٥٦هـ. انظر: ابن بسام، *الذخيرة*، مج٤، ص٦٤٢.

(٧٥) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٤، ص٦٤٢.

(٧٦) القنا: الرِّماح. وأما الشفار، فهي شفرات السيوف أي حروف حدّها؛ *لسان العرب*: قنو، وشفر.

(٧٧) الغبراء وداحس: فرسان معروفان لقيس بن زهير بن حذيفة العبسيّ؛ *لسان العرب*: غبر، ودحس.

(٧٨) الخطّار: حصان لحذيفة بن بدر الذبياني؛ وأمّا الأعوج، فهو فحل كريم تنسب إليه كرام الخيل؛ *لسان العرب*: خطر، عوج.

(٧٩) ذو الفقار: سيف رسول الله ﷺ وقد أهداها عليًّا بن أبي طالب. وهو كلُّ سيف به حُروز مطمئنة عن متنه؛ *لسان العرب*: فقر.

وأنــت زيد الخــيل أم عامــرٌ ومــالــك بن الــريب أم ذو الخِمار؟[٨٠]
فقــال لا هذا ولا ذاك ولا بل كُنــتُ عنهــم قمــراً في سِرار[٨١]

هذا وكثيرا ما كان ابن شرف يستهل قصائده في المديح ـ أثر نكبة وطنه ـ داعيا بالسقيا لأماكن وطنه المنكوب الذي فارقه رغما عنه. ومن ذلك قوله:

سَقى الـقَصرَ فالميدانَ أخــلاف مُزنَــةٍ وراحت على الــرّوحــاءِ منهــا أفَــاويقُ
على أنّــه مرمــىً نبَت عنــه أسهُــمِي فلا حزَّ لي في الأفــقِ مِنــه ولا فوقُ
أُنــاديه والــبــحــرُ المــحــيطُ مُجاوبي ودوني خليجٌ منــه أفــيحُ مخروقُ
وقُــرطــبــةُ ضَمَّــت إلــيهــا جوانــحــي كما ضَمَّ من عفــراء عروة تعــنــيقُ[٨٢]

ومما سبق، يتضح لنا أن ابن شرف كان قد اتّخذ من محنة وطنه القيروان، ومن الأسى الذي يغمر قلبه على ما أصابها، ومن الحنين الذي لازمه إليها وظل مسيطرا عليه، مقدّمات لقصائده في المديح. وهذا أمر طبيعي لشاعر مثل ابن شرف كان ملتزما بقضايا أمته ومجتمعه، رأى بعينه مشاهد القتل والتعذيب والتشريد، وذاق لسعة القهر، ومرارة الغربة والإهانة والتعصّب والإذلال. فلا مجال لديه والحالة هذه أن يلهو بالمرأة، ويتغزّل بها ووطنه ممتهن في براثن غزاته. ولذا فقد اختفت المقدّمات الطلليّة والغزليّة التقليديّة المعروفة من مطالع قصائده وأشعاره التي نظمها بعد نزوحه من وطنه، إذ لازمه شبح هذه النكبة المؤلمة، وحنينه إلى وطنه ومسقط رأسه القيروان طيلة وجوده بالأندلس، فلم يستطع أن يتخلّص منها ومن المصائب التي ألّمت به وشرّدته وأبناء وطنه.

وأما الرحلة التقليدية المعروفة التي يأتي بها الشاعر في قصيدة المديح لكي يصوّر فيها طريقه إلى ممدوحه، فقد استبدلها ابن شرف أيضا بالحديث عن محنته وما تجشّمه وأسرته من

---

(٨٠) ذو الخمار: هو لقب عوف بن الربيع المعروف بذي الرمحين؛ انظر: محمد مرتضى الزبيدي، *تاج العروس في جواهر القاموس* (طرابلس: دار ليبيا، ١٩٦٦م)، مادة خمر.

(٨١) السرار: الليلة المظلمة التي استتر عنها القمر؛ *لسان العرب*: سرر.

(٨٢) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٦.

مصاعب وأهوال وهو في طريقه إلى الأندلس إثر نكبة وطنه. ومن ذلك قصيدته التي رفعها إلى عبّاد صاحب إشبيليّة حينما دخل الأندلس، (٨٣) حيث يقول:

أُجَشِّمهم لَيْل القِفَار وظُلْمَةَ الـ بِحَارِ وكم ريعوا ولِلسيِّدُ إرْخَاءُ
ولي منهما سهمانِ هذا ابنُ أرْبَعٍ وهذا ابنُ سِتٍّ كُلّما كان إغْفَاءُ
أضُمّهُما والليلُ داجٍ كأنّما هُما نقطتا ياءٍ وجسمي هو الياءُ
فَطَوراً يُغَشّيهم على ذِكركَ الكَرى فتُصْبِحُ أضواءُ عليهم ولألاءُ
وطَوْرا يمجُّون الدُّجَى ومِطَالَه وما كان للغايات مَطْلٌ وإرجَاءُ
فتضجُر منهم أنفسٌ رُبَّما بكت بكاً هو للصمّ الجلاميد إبكاءُ
فإنْ أفحمتنا هيبةٌ عُمَريّةٌ لديكَ لها في الشّعْر كسرٌ وإقْواءُ
بذلتَ لنا انبساطاتٍ عَلَويّةً لها بعدَ مومات المهامِه(٨٤) أفياءُ(٨٥)

ويبدو لي أنّه في قصيدته التي رفعها إلى ابن طاهر(٨٦) والتي أكثر فيها من ذكر أسماء البادية، وبكاء الأطلال والدمن، وعبّر فيها عن حنينه إلى الأيام الماضية، يرمز بها إلى رحلته هو التي قام بها من القيروان إلى الأندلس، إذ لم يستطع أن يتحرر من الحنين إليها، والتعلق بها. وذلك إذ يقول(٨٧):

وعَاجُوا على عُسفانَ والليلُ ألْيَلٌ ومَرُّوا بذات البين والصبحُ مُسفِرُ(٨٨)
وحازَتْهم حُزوى ضُحىً وتَروَّحُوا بمنْعَجَ واستَعْلوا أباناً فَنَوَّرُوا(٨٩)

---

(٨٣) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٧٢.

(٨٤) المهمهة: المفازة البعيدة؛ *لسان العرب*: مهمهة.

(٨٥) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢١٩.

(٨٦) وهو: أبو عبدالرحمن محمد بن أحمد بن طاهر، صاحب مرسيّة. انظر: أخباره وترجمته في ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٥، ص٢٤.

(٨٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص٢٢٠-٢٢١.

(٨٨) عُسْفَان: قرية على حد تهامة تبعد عن مكّة ثلاثين ميلا. الحمويّ، معجم *البلدان*، مج٤، ص١٢٢.

(٨٩) مَنْعَج: واد لبني أسد كثير المياه. وأما أبان، فهو جبل بين فيد والنبهانية. الحمويّ، معجم *البلدان*، مج١، ص٦٢.

ولَّـا تواقـفـنـا بذي سَلَمٍ بدا سلامٌ لسـلمـى ظلَّ يَخْفَى ويَظْهَـرُ[٩٠]
شعَـرْتُ له والـرَّكْـبُ حَيْرانُ غافـلٌ ومـا شاعِـرٌ أمـراً كمـنْ ليسَ يشعُـرُ
رأت ظبـية الـوَعـسـاءِ عيني فهيَّجَت لها ذكـرهـم والشيءُ بالشيء يُذْكَـرُ[٩١]
سأبـكـي طُلولا كُنـتِ فيهـا مطلّةً عليهـا وكـلّ الـليل تحتـك مُقـمِـرُ
تَصرَّم ذاك الـعـيشُ إلا ادّكـاره وإلا كذوبـا في المـنـام تُزوَّرُ
فتـىً طاهـريٌّ طاهـرُ الـثَّـوب ذكْـرُه من المسـك أذكى أو من المـاءِ أطهـرُ

وأما قصائده التي بكى فيها وطنه، وصوّر فيها تلك النكبة الفادحة التي ألّمت به، فلم تحفظ لنا المصادر مطالعها. وإنّما أوردت مقتطفات منها.[٩٢]

الألفاظ والأساليب

اهتمّ النقّـاد العـرب بالحـديث عن المفردات اللغوية في العمل الأدبي، وعلاقتها بالأغـراض الشعرية التي تستعمل لها، ذلك لأن العلاقة بين المفردات اللغوية والغرض الذي تستخدم له وثيقة الصلة. يقول ضياء الذين بن الأثير: «الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقع الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك. وأمّا الرقيق منها، فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام العباد، واستجلاب المودّات وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك.»[٩٣]

(٩٠) ذو سلم: واد على طريق البصرة إلى مكة. الحموي، معجم *البلدان*، مج٣، ص٢٤٠.

(٩١) الوعساء: موضع بين الثعلبيّة والخزيمية على جادة الحاج، وهي أيضا الأرض اللينة ذات الرمل. الحمويّ، معجم *البلدان*، مج٥، ص٣٧٩.

(٩٢) انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤.

(٩٣) ضياء الدين بن الأثير، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تحقيق أحمد الحوفي، ط١ (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٩م)، مج١، ص٢٤٠؛ وانظر: علي بن عبدالعزيز الجرجاني، *الوساطة بين المتنبي وخصومه*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، د.ت.)، ص٢٤؛ وأحمد الشايب، *الأسلوب*، ط٦ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦م)، ص٨٤.

ولكن الناظر في شعر ابن شرف الذي قاله إثر نكبة وطنه القيروان، يرى أن ألفاظه بصورة عامة كانت تميل إلى الجزالة وقوة الجرس، حتى في المواطن التي كانت تتطلب الرقّة والعذوبة، وذلك لأنه كان محزونا مقهورا، يعاني من آلام الغربة والتشريد. والعلاقة ـ كما يرى أحمد الشايب ـ ما بين نفسيّة الأديب والألفاظ التي يستخدمها قوية.(٩٤) ومن أجل ذلك فقد جاءت ألفاظه التي عبّر فيها عن حنينه إلى وطنه، وتحدّث فيها عن نكبته متلائمة مع جوّه النفسي، ومع نفسيته القلقة الثائرة على ما أصابه وأبناء وطنه. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله:

إذا كان للأحباب رسلٌ فرُسلنا ... بروقٌ إلى أحبابنا ورياحُ
ومن دونِ تلك الرُّسلِ أخضرُ زاخرٌ ... أجاجٌ ومهجورُ الفجاجِ فَياحُ
وللسهمِ دونَ القيروان تسهّمٌ ... وما شَوكُه إلا ظُبا ورماحُ
وقرَّةُ قد قرَّت هناك عيُونُها ... وزُغْبَةُ ريشَت زُغبُها ورياحُ(٩٥)

وقوله أيضا:

بعدَ يومٍ كأنّما حُشِرَ الخَلْـ ... ـقُ حُفاةً به عَواريَ رجْلَى
ولهم زَحْمَةٌ هنالك تَحْكِي ... زَحْمَةَ الحشْرِ والصحائفُ تُتلَى
وعَجيجٌ وضجّةٌ كضجيجِ الـ ... ـخَلْقِ يَبكُون والسرائرُ تُبْلَى(٩٦)

وأما دقة ابن شرف في تخيّر الألفاظ المناسبة لمعانيه التي يتحدث عنها، فقد تجلت في تصويره نكبة وطنه وما أصابه وأهله، إذ كان يختار لها ما يناسبها من الكلمات المعبّرة الموحية، لكي تؤدي دلالتها بقوة ووضوح بعد أن يشحنها بعاطفته القويّة. ومن ذلك قوله:

يا قيروانُ وَددتُ أنّيَ طائرٌ ... فأراك رُؤية باحثٍ مُتأمِّلِ
آها وأيَّةُ آهةٍ تَشْفِي جوى ... قلبٍ بنيرانِ الصّبابةِ مُصْطَلِي
زَعَمُوا ابن آوى فيك يعوي والصَّدَى ... بِذُرَاكَ يَصْرُخُ كالحزين المُثكَلِ(٩٧)

(٩٤) انظر: الشايب *الأسلوب*، ص١٩٤.
(٩٥) انظر: ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٦.
(٩٦) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٨.
(٩٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٣.

وقوله:

كأنَّ الديارَ الخالياتِ عرائسٌ كواسدُ قد أزرت بهنَّ الضَّرائرُ
وتُنْكِر بُقْياها الأسِرَّةُ حُسّراً عواطِلَ لا تُفْشى لهُنَّ السَّرائرُ
إذا أقبلَ الليلُ البَهيمُ تمكّنت بها وَحْشَةٌ مِنها القُلوبُ نوافرُ(٩٨)

ومن مظاهر اهتمام ابن شرف بمفرداته اللغوية إكثاره من استخدام المحسّنات اللفظية والمعنوية، وخاصة الجناس والمقابلة، إذ كان في شعره الذي صور النكبة يركّز بصورة واضحة على المفردة اللغوية من حيث رسمها وصوتها وإيقاعها. وقد دفعه ذلك إلى البحث عن نظائر اللفظة ومشتقّاتها. ومن أجل ذلك فقد حفل شعره بالجناس الاشتقاقي الذي أربى على غيره من صور الجناس الأخرى. ومنه قوله:

فتَرى للظُّهورِ تُعتَلُ عَتْلا وتُشَقُّ البُطُون تُغْسَل غَسْلا(٩٩)

وقوله:

يمرُّ عليها المَوْرُ يسحَبُ لُحْفَهُ ولا كانسٌ إلاّ الرّياحُ الغدائرُ(١٠٠)

وقوله:

وقرَّةُ قد قَرَّت هناكَ عُيُونها وزُغْبَةُ ريشَت زُغْبُها ورياحُ(١٠١)

وقوله أيضا:

فيا أخويَّ من أسدٍ وسَعْدٍ أحيٌّ حيُّ زُغْبَةَ أم دفينُ؟
ولا سرت الرّياحُ على رِياحٍ لواقحُ مُزْنَةٍ أنّى تَكُونُ(١٠٢)

وأما المقابلة، فتكاد تكون ظاهرة مميزة لشعر ابن شرف الذي تحدث فيه عن نكبة وطنه، وخاصة حينما كان يقابل ما بين حاله قبل النكبة من ناحية، وبين حال أبناء وطنه ويصوّر انقلاب أوضاعهم من ناحية أُخرى. ومن ذلك قوله:

(٩٨) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٤.

(٩٩) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٩.

(١٠٠) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٤.

(١٠١) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٧.

(١٠٢) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.

محمـودُ عيشٍ جادَ لي دَهْـري به ثُمَّ اسـتردَّ فكـانَ فيه خَصـيمـي
وَلّى وخَـلّى جَمْرةً مَشْـبُـوبـةً تُذْكي على الأحشـاءِ نارَ سَمُـومِ(١٠٣)

وقوله:

أطـافِـلٌ ما سَمِـعَـت بالـفَـلا قَطُّ فعـايَنـتُ الـفَـلا دارَهـا
ولا رَأَتْ أبـصـارُهـا شاطِئـاً ثُمَّ جَلَت بالـلّجِّ أبـصـارَهـا
ولم تَكُـنْ تَعـلُو سَريرا عَلا إلاّ إذا وافَـقَ مِقْـدارَهـا(١٠٤)

ومن السـمات الأسلوبية الواضحة التي يراها الدّارس في شعر ابن شرف القيرواني الذي صور النكبة التكرار، إذ كان يكرر المعنى الواحد في قوالب لفظية متعددة. ولعل ذلك مردّه إلى شدّة انفعاله، وقوة تعبيره عن خلجات نفسه، وشعوره بما أحس أو شاهد. وكأنّي به قد أحسّ أنّ الكلمة عاجزة عن تصوير محنته، وعن التعبير عما يعتمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس. فهمّه كبير، ومصابه عظيم، وأفكاره مشتتة. كيف لا وهو يعبّر عن هم جماعي، وشعور ذاتي ممزوج بهموم أمته وقومه؟! ولذا فقد أطنب، وكرر المعنى الواحد في صور لفظية متعددة، حتى يخفف من وطأة نفسه المقهورة، وشدة حزنه. وقد أسعفه في ذلك معجمه اللغوي وثقافته الواسعة. ومن الأمثلة على ذلك قوله:

آهِ للقـيروان أنَّـةَ شَجْـوٍ عن فُؤادٍ بجـاحِمِ الحُـزْنِ يَصْـلَى(١٠٥)

وقوله في موضع آخر مكررا المعنى نفسه:

آهـا وأيّةُ آهـةٍ تَشْـفِـي جَوى قلبٍ بنـيران الـصّبـابَـةِ مُصْـطَلِي(١٠٦)

وقوله مصوّرا خلاء القيروان:

حِينَ عادَت به الـدّيارُ قُبُـوراً بَل أقـولُ الـدّيارُ مِنْهُـنَّ أَخْـلَى(١٠٧)

حيث يكرر المعنى نفسه في غير مرّة بقالب آخر، وذلك إذ يقول:

---

(١٠٣) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢١٧.
(١٠٤) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣١.
(١٠٥) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٧.
(١٠٦) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٣.
(١٠٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٧.

زَعَمُوا ابن آوى يعوي والصّدى بِذُرَاكِ يَصْرُخُ كالحزين المُثْكَلِ[١٠٨]

ويقول:

إذا أقبل الليلُ البَهيمُ تَمكَّنَت بها وَحْشَةٌ مِنْها القُلُوبُ نَوافِرُ[١٠٩]

الصورة الشعرية

وأما صوره الشعرية التي عبر بها عن أفكاره ومشاعره إثر محنة وطنه، فقد تأثّرت تأثّرا واضحا بتلك النكبة المؤلمة التي أدمت قلبه، وألهبت مشاعره وأحاسيسه، إذ بقيت مشاهد القتل والتعذيب والدمار مختزنة في ذهنه، حتى كانت مصدرا مهما من مصادر صوره الشعرية التي عبّر بها عن وقع تلك النكبة في نفسه. ويكفينا للتدليل على ذلك أن نورد قوله في مدح المعتمد بن عبّاد، حيث يقول:

يا حاسديه على عُلاً خُطَّت له سَبَق القضا بالنُّونِ بعدَ الكافِ

يُخْلي الدّيار من الجسُوم ويَجْتَني ثَمَرَ الرؤوسِ وطَرْفَة الأطرافِ

فكأنّما الأجسامُ بعدَ رؤوسِها أبياتُ شِعْرٍ ما لَهُنَّ قوافِ[١١٠]

حتى إن ابن بسّام حينما أورد هذه الصورة علق عليها بقوله: «وما أمتري أنّ الغربة فلّت غرب طبعه، وغسلت من جوانحه، وأطفأت نار قرائحه.»[١١١]

وقوله في أعداء وطنه الّذين كانوا سببا في خرابه وتشريد أهله، حيث رآهم ثعابين مفترسة، وشياطين مدجّجة بالسلاح، مستوحيا ذلك من واقع النكبة، ومما كان قد شاهده، وذلك واضح في قوله:

فإذا القَفْرُ ضَمَّهُم فَوْقَ الدَّهـ ـرُ لَهُمْ غير ذلك النَّبْلِ نَبْلا

مِن ثَعابِينَ حامِلينَ نُيُوباً عُصُلاً ذَابِلاً ونَبْلاً ونَصْلا

(١٠٨) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٣.

(١٠٩) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٤.

(١١٠) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢١.

(١١١) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٢.

وشياطينَ راجحينَ يُلاقُو نَ بجون الفَلا مساكينَ عُزْلا
فَتَرى للظُّهورِ تُعْتَلُ عَتْلا وتُشَقُّ البُطُونُ تُغْسَلُ غَسْلا(١١٢)

الموسيقا

وأما موسيقاه الشعرية وأوزان قصائده التي نظم عليها قصائده في تصوير نكبة وطنه، فقد اختار لها البحور الطويلة ذات السير البطيء لقدرتها على تحمل همومه الثقيلة، والتعبير عن نفسه الحزينة المتعبة التي عانت من أصناف القهر والغربة. فالدّارس لأشعاره يستطيع أن يلاحظ بوضوح أنه قد نظم معظم أشعاره التي قالها في بكاء وطنه، وتصوير نكبته على البحر الكامل بالدرجة الأولى فالطويل والبسيط والوافر على تفاوت فيما بينها. وفي هذا يقول إبراهيم أنيس: «إنَّ الشاعر في حال اليأس والجزع، يتخيّر وزنا طويلا كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفّس عنه حزنه وجزعه.»(١١٣) ولكن هذا لا يعني في حالة من الأحوال أن الشاعر يصب شعره في قوالب جاهزة. وإنما طبيعة التجربة هي التي تحدد الوزن الشعري.

أثـر النكبـة في شخصيتـه

لقد كانت هذه النكبة ذات أبعاد كثيرة في شخصية ابن شرف وشعره، إذ جعلت منه إنسانا آخر، وخاصّة حينما وجد نفسه بعيدا عن وطنه وأهله، يعاني من هموم الوحدة والوحشة مع أنّه كان يتصل بالناس وخاصّة الحكام منهم، ويلقى عندهم الودّ والتقدير. يقول ابن بسّام أثناء حديثه عن الشعراء الذين حضروا حفل ختان حفيد ابن المأمون بن ذي النّون، صاحب طليطلة: «فدخلوا إليه يقدمهم شيخهم المقدّم من جماعتهم ذلك اليوم، محمد بن شرف القيرواني القريب عهده بالهجرة، بعد خبطه سمرات ملوك الأندلس بمحجنته، واعتصارهم بقصعته.»(١١٤) ويقول ابن شاكر: «ولمّا وفد أبو عبدالله بن شرف القيرواني على الأندلس، تطلّعت إليه همم ملوكها، لبعد صيته.»(١١٥)

---

(١١٢) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٩.

(١١٣) إبراهيم أنيس، *موسيقى الشعر العربيّ*، ط٣ (القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٦٥م)، ص١٧٤.

(١١٤) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٣٩.

(١١٥) ابن شاكر، *فوات الوفيات*، مج١، ص ١٤٧.

وعلى الرّغم من المكانة الرفيعة، والخطوة التي نالها ابن شرف بالأندلس، إذ كان مُحبّبا إلى حكـامهـا، إلا أنه كان يحس إحساسا قويا واضحا بالغربة، وبعدم التكيف مع مَن يحيطون به من جانب، ومع الوضع الجديد الذي فُرض عليه من جانب آخر. وذلك في اعتقادي يعود إلى أنه لم يكن قادرا على إذلال نفسه والتنازل عن مشاعره الصادقة الأمينة، وخاصة حينما أدرك حقيقة المجتمع الأندلسي المتناحر، وزيف حكامه المتنازعين، وتعصّب أبنائه ضد إخوانهم الطّارئين عليهم. فعمّق كل ذلك إحساس ابن شرف بالغربة من ناحية، وبقيمة الوطن وأهميته من ناحية أخرى.

وقد انعكست أصداء ذلك كله في شعره الذي كان صورة صادقة لحياته بعد تلك النكبة المؤلمة التي قلبت أوضاعه النفسية والاجتماعية. فنراه صاحب نفسية مضطربة قلقة لا تعرف الهدوء والاستقرار، وهذا واضح في قوله:

ولا سَرَتِ الـرِّياحُ على رِياحٍ لواقِـحُ مُزْنَـةٍ أنّـى تَكُـونُ
فقـد دارَت علينـا من رَحـاهـا طَحُـونٌ كُلَّما لاقـت زَبُـونُ
فلا وَطَـنٌ لنـا إلّا المـطايا وإلّا المـاءُ طَوْراً والسَّـفِـينُ[١١٦]

إذ كان متنقلا من بلد إلى بلد، ومن حضرة إلى أخرى. يقول ابن بسّام: «لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوّف ويتنقل في الدول من منزل إلى منزل، ومن بلد إلى بلد.»[١١٧] ولذا فقد عدّه إحسان عبّاس من الشعراء الجوّالين،[١١٨] وخاصة بعد أن فارق وطنه إثر نكبته.

وما من شك في أن هذه النكبة التي فَرضَت عليه مفارقة وطنه وألجأته إلى الأندلس وهي على ما هي عليه من التمزّق والتّردي، قد عمّقت في نفسه الإحساس بالغربة والوحدة، فجعلته وحيدا من غير أصدقاء، لأن الناس في نظره يتّصفون بالخيانة والغدر، وهذا واضح في قوله:

---

(١١٦) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٨.

(١١٧) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٨١.

(١١٨) إحسان عباس، *تاريخ الأدب الأندلسي*، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٢م)، ص٨٤.

وأَفْقِدُ ما طَلَبْتُ فلم أجِدْهُ ... رفيقٌ في صَحابَتِهِ رفيقُ
فأصْبحَ وهو للعنقاءِ ثانٍ ... وثاوٍ حيثُ فرَّختِ الأنوقُ
صَحِبْتُ بهذه الدُّنيا أُناساً ... إذا غَدَرُوا فَغَدْرُهُم وثيقُ
ولم أصحَبْهُمُ ودّا ولكنْ ... كما جمعَ العدوّينِ الطّريقُ(١١٩)

وفي قوله أيضا:

ما صحَّ لي أحدٌ أُصيّرُهُ أخاً ... في اللّهِ مَحْضاً أو ففي الشيطان
إمّا مولٍّ عن وِدادي مالَهُ ... وجْهٌ وإمّا مَنْ له وَجْهانِ(١٢٠)

وفي قوله:

وَلَقد يُهَوِّنُ أنْ يَخُونكَ كَاشِحٌ ... كَوْنُ الخِيانَةِ مِن أخٍ وخَدينِ
لَقّى أَخُو يَعْقُوبَ يَعْقُوبَ الأذى ... وَهُمَا جَميعاً في ثِيابِ جَنينِ
وَمَضَى عَقيلٌ عن عليٍّ خاذِلاً ... وَرأى الأَمينُ جِنَايَةَ المأمُونِ
فَعَلَى الوفاءِ سَلامُ غَيْرِ مُعَاينٍ ... شَخْصاً لهُ إلاّ عِيَانَ ظُنُونِ(١٢١)

وما حنينه الدائم إلى أصدقائه وخلاّنه الذين فارقهم إثر تلك النكبة المؤلمة إلا دليل على إحساسه الشديد بالغربة، وحنينه إلى وطنه وتعلّقه به. يقول:

أَهْلَ الصّفاءِ نأيتمْ بعدَ قُربكُمُ ... فما انتَفَعْتُ بعَيْشٍ بعدَكُم صَافِ
وَقَدْ قَصَدْتُ ندى مَن لا يوافِقُني ... فكانَ سَهْمِيَ عنهُ الطائشَ الهافي(١٢٢)

ومن أجل ذلك نراه متبرما من الزمان وتقلباته، شاكيا من الأيام التي عملت على قلب أوضاعه وأوضاع وطنه المنكوب. يقول:

---

(١١٩) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٤.

(١٢٠) العمريّ، *مسالك الأبصار*، مخطوط، ق٢، جـ١١، ورقة ٢٤٢.

(١٢١) الحمويّ، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص ص٤٠-٤١؛ والصفدي، *الغيث المسجّم في شرح لامية العجم* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٥م)، مج٢، ص٣٤٨؛ والميمني، *النتف*، ص ص١١٣-١١٤.

(١٢٢) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٢٦.

سَلْ عَن رِضَايَ عن الزمَانِ فإنَّهُ كَرِضَى الفرزْدَقِ بني يَرْبُوعِ [١٢٣]
للّه حال قد تَنَقَّلَ عهْدُها بِخِلافِ نَقْلِ الدَّهْرِ حَالَ صَرِيعِ [١٢٤]
دَارَتْ دراريُّ الخُطُوبِ قَواصِداً حتى نَظَرْنَ إليّ مِن تَرْبِيعِ [١٢٥]

ويقول :

مَحْمُود عَيْشٍ جَادَ لي دَهْري به ثُمَّ استَرَدَّ فكانَ فيه خَصِيمي
وَلَّى وخَلّى جَمْرةً مَشْبُوبَةً تُذْكِي على الأحْشَاءِ نَارَ سَمُومِ [١٢٦]

ويقول في موضع آخر :

مَالِي أُجَاذِبُ ذِي الدُّنيا مولّيةً فكُلُّ ثَوْبٍ عليها قُدَّ مِن دُبُرِ [١٢٧]

ومن الجدير بالذكر هنا ، أنَّ هذه النكبة الموجعة ، وهذه الغربة المُرة القاسية قد أكسبته خبرة ودراية بالناس وبطبائعهم ونفسيّاتهم وعاداتهم على اختلاف مستوياتهم ومراكزهم ، إذ عارك الأيّام وعاركته فأذاقته من مرارتها وقسوتها ، فتسنّى له بذلك أن يتصل بأقوام مختلفة ، وشعوب متنوعة ، فعبر عن ذلك كله في شعره تعبيرا صادقا ، ومن ذلك قوله :

إنْ تَرْمِكَ الغُرْبَةُ في مَعْشَرٍ قَد جُبِلَ الطَّبْعُ على بُغْضِهِمْ
فَدارِهِمْ مَا دُمْتَ في دَارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرْضِهِمْ [١٢٨]

وقوله أيضا :

(١٢٣) وهم : رهط جرير بن عطية الشاعر المعروف . انظر : ابن حزم ، *جمهرة أنساب العرب* ، ص٢٢٥ .

(١٢٤) وهو : مسلم بن الوليد . كان مدّاحا حسنا ، ولكنه خاملا ، ثُمّ ولاّه بنو سهل جرجان فشُرف بها إلى أن توفي . انظر : عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، *الشعر والشعراء* ، تحقيق أحمد شاكر (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٦م) ، مج٢ ، ص٨٣٢ ؛ وعلي بن الحسين الأصفهاني ، *الأغاني* (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٥٧م) ، مج١٨ ، ص٣١٥ .

(١٢٥) ابن بسّام ، *الذخيرة* ، مج٧ ، ص٢٢٦ ؛ وأحمد بن عبدالمؤمن الشريشيّ ، *شرح مقامات الحريريّ* ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة : مطبعة المدني ، د.ت .) ، مج٤ ، ص٨٨ .

(١٢٦) ابن بسّام ، *الذخيرة* ، مج٧ ، ص٢١٧ .

(١٢٧) ابن بسّام ، *الذخيرة* ، مج٧ ، ص٢٢٢ .

(١٢٨) ابن بسّام ، *الذخيرة* ، مج٧ ، ص١٧٢ .

يا خَائِفاً مِن مَعْشَرٍ لا يُصْطَلَى بِنَارِهِمْ
إنْ تُبْلَ مِن شَرَارِهِمْ على يَدَيْ شِرَارِهِمْ
أو تُرْمَ مِن أحجَارِهِمْ وأنتَ في أحْجَارِهِمْ
فما بَقِيْتَ جَارَهُمْ ففي هَواهُمْ جَارِهِمْ
وَأَرْضِهِمْ في أرْضِهِمْ ودَارِهِمْ في دَارِهِمْ(١٢٩)

وقوله:

احْذَرْ مَحَاسِنَ أوْجُهٍ فَقَدَت مَحَا سِنَ نَفْسِهَا وَلَو أنَّها أَقْمَارُ
سُرُجٌ تَلُوحُ إذا نَظَرْتَ فإنَّها نُورٌ يُضِيءُ وإنْ مَسَسْتَ فَنَارُ(١٣٠)

ولذا فقد تعامل مع الناس، وخاصة الحكام منهم بحرص وحذر شديدين، فلم يكن ينخدع بكلامهم النّاعم المعسول الذي يعقبه ألم وندم. وهذا واضح في موقفه من المعتضد صاحب إشبيلية، إذ خاطبه ابن شرف بقوله:

أأنْ تَصيدَتَ غيري صَيْدَ طَائِرةٍ أَوْسَعْتَهَا الحَبَّ حتى ضَمَّهَا القَفَصُ
حَسِبْتَني فُرْصَةً أُخرى ظَفِرْتَ بها هَيْهَاتَ ما كُلُّ حينٍ تُمْكِنُ الفُرَصُ
وظَاهِرٌ حَسَنٌ أيضا لِقِصَّتِهَا لكنْ لها بَاطِنٌ في طَيِّهِ قِصَصٌ
لكَ المَوائِدُ للقُصَّادِ مُتْرَعَةً تُرْوِي وَتُشْبِعُ لكنْ بَعْدَها غُصَصُ
وَلَسْتُ أعْجَبُ مِن قَوْمٍ بها انتَشَبُوا لكِنَّما عَجَبِي مِن مَعْشَرٍ خَلَصُوا
ولم يَطِبْ قَطُّ لِي من يَلَذُّ ولا سَلْوَى إذا كان في عُقْبَاهُما مَغَصُ(١٣١)

هذا وفي شعر ابن شرف ما يؤكّد أن تأثير هذه النكبة لم يقتصر على الجانب النفسي فحسب، وإنما انعكس أيضا على الناحية الجسميّة، إذ عملت على تغيير ملامحه الخارجية، وشغلته عن التمتع بمباهج الحياة من حوله على الرُّغم من كثرتها. ومن الأمثلة الواضحة على ذلك قوله وقد هدّته النكبة:

---

(١٢٩) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٧٢.
(١٣٠) الحموي، *معجم الأدباء*، مج١٩، ص٤٣.
(١٣١) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص١٨٢.

جُسُومٌ على حُكْمِ البِعُيُونِ صِحَاحُ وفي طَيِّ أحْنَاءِ الضُّلُوعِ جِرَاحُ[١٣٢]

وقوله أيضا: متشوّقا إلى القيروان:

كأَنْ لَمْ يَكُنْ لي أمس في عَرَصَاتِها مِن العَيْشِ جدٌّ طَيّبٌ ومُزَاحُ
يخيّلها زَوْرُ الكَرى ليَ في الدُّجَى فَأَرْغَبُ في ألاّ يلوح صَبَاحُ
كُسِيتُ قِنَاعَ الشَّيْبَ قَبْلَ أوانِهِ وَجِسْمِي عليه للشَّبَابِ وشَاحُ
ويا رُبَّ وجْهٍ فيه للعَيْنِ مَنْزَهٌ أُمَانِعُ عيني مِنْهُ وهو مُبَاحُ
وأهجرهُ وهو اقْتِرَاحِي مِنَ الوَرَى وقَدْ تُهْجَرُ الأمْوَاهُ وهي قَرَاحُ[١٣٣]

ومع ذلك كلّه، فإن ابن شرف لم يضعف، ولم يتردّى في هوّة اليأس والاستسلام إذ لم يسمح للمصائب والمحن التي تعرّض لها أن تنال من صبره وجلده، وإنما قابلها بصلابة وحزم وعزّة نفس. وذلك إذ يقول:

سأُبقِي على الدُّنيا بِصَوْلَةِ مِحْرَابِ[١٣٤] وإلاّ على الأخرى بِوَصْلَةِ مِحْرَابِ
ولا خَيْرَ في عَيْشٍ يَكُونُ قوامُهُ بِمِنْحَةِ مكذوبٍ ومِدْحَةِ كَذَّابِ[١٣٥]

خاتمة

وبعد، فإن ظاهرة رثاء المدن والممالك الزائلة في الأندلس تُعد ظاهرة جديدة على الرُّغم من وجودها في الشعر المشرقي.[١٣٦] ذلك لأن الشعراء الأندلسيين توسّعوا في هذا اللون من الشعر، وأكثروا من النَّظم فيه، حتى غدا عندهم فنا جديدا مبتكرا اقتضته طبيعة الحياة السياسية المضطربة التي عاشتها بلادهم منذ سقوط دولة بني أمية، وتمزُّق وحدة البلاد

(١٣٢) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٦.

(١٣٣) ابن بسّام، *الذخيرة*، مج٧، ص٢٣٧.

(١٣٤) المِحْرَب: الرّجل الشجاع عند اللقاء الشديد في الحرب. وأما المِحْراب، فهو مكان الإمام في المسجد؛ *لسان العرب*: حرب.

(١٣٥) العماد الأصفهاني، *الخريدة*، ق٤، جـ٢، ص١١٨.

(١٣٦) انظر: عمر الدقّاق، *ملامح الشعر الأندلسي*، ط١ (بيروت: دار الشرق العربي، ١٩٧٣م)، ص٣٢٤.

الأندلسية، وتوزعها على شكل ممالك صغيرة متنازعة متناحرة فيما بينها والعدو يطرق أبوابها متربصا بها. ولذا فقد كثرت فيها الفتن والنكبات على أيدي أبنائها المسلمين من ناحية، وعلى أيدي أعدائها(١٣٧) من غير المسلمين الطامعين بها من ناحية أخرى.

ولذا، فقد برز نوعان من الشعر الأندلسي الذي بكى المدن المنكوبة: الأول منهما كان يصور الكوارث والنكبات التي حلت بالمدن الأندلسية على أيدي أبنائها من المسلمين، كذلك الشعر الذي قيل في نكبة قرطبة سنة ٤٠١هـ على أيدي البربر، ويمثله ابن شهيد وابن حزم(١٣٨) وابن درّاح.

ثم الذي قيل في نكبة القيروان سنة ٤٤٩هـ على أيدي العرب من بني هلال، ويمثله ابن شرف، وابن رشيق والحصري.(١٣٩) وهذا اللون من المراثي ينهل من معين واحد يقوم على تصوير خلاء المدن المنكوبة من أهلها، وتصوير حاليها قبل النكبة وبعدها، وإظهار الحزن والتأسّف لما حل بتلك المدن من خراب وتقتيل وتشريد.

وعلى الرُّغم من أن ابن شرف يتفق مع أصحاب هذا الاتجاه(١٤٠) في منهجه ومضامينه التي دار حولها في قصائده وأشعاره، إلا أن ما وصلنا من شعره الذي صور النكبة يتسم بأمور منها: أن ابن شرف كان أكثر اهتماما وانفعالا بالمواقف التي عاشها وأبناء وطنه في ظل تلك النكبة، وأكثر تدقيقا وتركيزا على نقل دقائق الأحداث وتفصيلاتها الدقيقة. ومنها أن ابن

(١٣٧) المقـرّي، *نفح الطيب*، مج٤، ص ص٤٤٦-٤٦٥؛ وعبّاس، *تاريخ الأدب الأندلسي*، ص ص١٧٧-١٨٧؛ والدقّاق، *ملامح الشعر الأندلسي*، ص ص ٢٩٠ ـ ٣٣٠.

(١٣٨) انظر: الدقّاق، *ملامح الشعر الأندلسي*، ص ص٢٧٣ ـ ٢٧٨؛ وأحمد بن شهيد، *ديوان ابن شهيد*، تحقيق يعقوب زكي، ط١ (القاهرة: دار الكتاب العربي)، ص١٠٩.

(١٣٩) انـظر: عبدالرحمن ياغي، *حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها*، ط١ (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦١م)، ص ص٣٥٠-٣٥٤.

(١٤٠) انـظر: ابن بسّـام، *الـذخيرة*، مج٧، ص١٧٠، حيث يقول: «وانتحى منحى القسطلي في شكوى الزّمان، والحديث عن الفتن.»

شرف قد فارق وطنه فراقا لا لقاء بعده، إذ لم تكتحل عيناه برؤية وطنه إثر خرابه، وإنما مات في الأندلس غريبا بعيدا. ولذا فإن ما قاله في بكاء وطنه ونكبته كان إلى الحنين أقرب منه إلى الرثاء والتفجّع. ومن هنا فقد جاء شعره طافحا بعبارات الشوق واللهفة لرؤية الوطن والعودة إليه. ومنها أيضا أنّ ابن شرف فيما قاله، قد انطلق من قيود الذات والمشاعر الفردية إلى التعبير عن المشاعر الجمعية، فمثّل وجدان الناس المنكوبين من أبناء وطنه، وعبر عن أحاسيسهم وما يعتمل في نفوسهم من عواطف وانفعالات، إذ كان واحدا منهم ذاق ما ذاقوه من ويلات، وعانى مما عانوا منه في ظل تلك النكبة من ناحية، وفي ديار الغربة من ناحية أخرى. ولذا فقد جاء شعره صادقا مؤثرا يضرب في أعماق الوجدان الإنساني ويهز كيانه.

وأمّا الثاني منهما، فهو الشعر الذي صوّر النكبات والكوارث التي حلّت بالمدن الأندلسية على أيدي الأعداء. وهذا يتسم بتحرر أصحابه من البكاء والتفجّع على ما حلّ بمدنهم، فأخذوا يهدّدون بالانتقام والثأر،(١٤١) ويدعون الناس إلى الجهاد والمواجهة، ويستنهضون المسلمين لإنقاذ البلاد ودفع العدوّ عنها. وهذا أمر لا نجده في أشعار ابن شرف الذي اكتفى بردّ ما حلّ ببلاده إلى ارتكاب الذنوب من ناحية، وظلم الحكّام من ناحية أُخرى، ولم يستصرخ أحدا من الحكام لإنقاذ وطنه ودفع الظلم والعدوان عنه.

(١٤١) انظر: محمد مجيد السعيد، *الشعر في عهدالمرابطين والموحدين بالأندلس*، ط١ (بغداد: دار الرشيد للفكر، ١٩٨٠م)، ص ص ٣٠٩، ٣١٧.

The Reflection of the Calamity of Qayrawan in the Poetry of Ibn Sharaf

Helmi Ibrahim Abdel-Fattah Al-Keilani
Lecturer, Humanities Department, Mu'tah University, Al-Karak, Jordan

Abstract. This study seeks to study the reflection of calamity of Qayrawan in Ibn Sharaf al-Qayrawani's poetry. Al-Qayrawani was an inhabitant of this city and lived the horrible days of that calamity; the was one among the thousands who fled from the city and he spent the rest of his days in Andalus (Spain). This study follows this sequence: The causes and dimensions of the calamity. The depiction of that calamity in al-Qayrawani's poetry from two aspects: subjective and aesthetic. The final part of this study discusses the effects of the calamity on al-Qayrawani's character.